بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة في مخلوقات الله عز وجل

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

خطبة الكتاب:

الحمد لله الذي جعل نعمته في رياض جنان المقربين وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين، وجعل التفكر في مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين، استدلوا عليه سبحانه بصنعته فعلموه وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحدوه، وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه، فهو القيم بالقسط في جميع الأحوال، وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال، فعلموا أنه الحليم القادر العليم، كما قال في كتابه الكريم: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران18].

والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين وشفيع المذنبين محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه وشرف وكرم إلى يوم الدين.

أما بعد:

لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه التفكر في عجائب مصنوعاته وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته، وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين وفيه تفاوت درجات المتقين، وضعت هذا الكتاب منبهاً لعقول أرباب الألباب بتعريف وجوه من الحكم والنعم التي يشير إليها معظم آي الكتاب. فإن الله تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحي وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته، والتفكر والاعتبار معاً فيما أودعه من العجائب في مصنوعاته، لقوله سبحانه: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس101] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء30] إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي يفهمها متدبرها، والمترقي في اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة والفوز بما وعد به عباده من الحسنى وزيادة.

باب التفكر في خلق السماء وفي هذا العالم:

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[ق6].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق12].

إذا تأملت هذا العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبسط، والنجوم منصوبة كالمصابيح، والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه.

فخلق الله السماء وجعل لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها، وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيماً وراحة لاسيما إذا انفطرت نجومها وظهر نور قمرها.

وبحركتها تسير الكواكب فتهتدي بها أهل الآفاق. قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات7]. قيل الحبك الطرق، وقبل ذات الزينة، فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعه محكمة صمدية تدل على سعة علم بارئها وأمور ترتيبها كما تدل على إرادة منشئها فسبحان القادر العالم المريد.

وقيل: في النظر إلى السماء عشر فوائد: تنقص الهم، وتقلل الوسواس، وتزيل وهم الخوف، وتذكر بالله، وتنشر في القلب التعظيم لله، وتزيل الفكر الرديئة، وتنفع لمرض السوداء، وتسلي المشتاق وتؤنس المحبين، وهي قبلة دعاء الداعين.

باب في حكمة الشمس:

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ [نوح16].

إن الله سبحانه خلق الشمس لأمور لايستكمل علمها إلا الله وحده، فالذي ظهر من حكمته فيها أن جعل حركتها لإقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض، ولولا ذلك فكيف سيعيش الناس مع فقدهم لذة النور ومنفعته، ولولا ضياء نورها ما انتفع بالأبصار ولم تظهر الألوان وتأمل غروبها وغيبتها، ولولاه لم يكن للخلق هدوء ولاقرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء وراحة أبدانهم.

ثم كانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصاله حتى يحترق كل ما عليها من الحيوانات والنباتات.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص71].

ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول فيستقيم أمر النبات والحيوان، فلولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولما عرفت المواقيت، ولو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق.

وانظر إلى إمالة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلك الصيف والشتاء، فهذا مما يدلك على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه.

ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج لإقامة دور السنة، وهذا الدور هو الذي يجمع الأزمنة الأربعة: الشتاء والصيف والربيع والخريف.

تأمل إشراق الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى، فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها.

ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار كيف وقّتها سبحانه على ما فيه صلاح العالم فصارا بمقدار لو تجاوزاه لأضرا بكل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات.

باب في حكمة خلق القمر والكواكب:

قال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً﴾ [الفرقان 61].

اعلم أن الله سبحانه وتعالى جعل الليل لبرد الهواء وهدوء الحيوان وسكونه، فلم يجعله سبحانه ظلمة داجية لا ضياء فيها البتة.

فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما نحتاج إليه في المعونة على ذلك، وينقص نوره عن نور الشمس وحرها لئلا ينشط الناس في العمل نشاطهم في النهار فينعدم ما به يتمتعون من الهدوء. وجعل في الكواكب جزء من النور يستعان به إذا لم يكن ضوء القمر، وجعل في الكواكب زينة السماء وأنساً وانشراحاً لأهل الأرض.

ثم في القمر علم الشهور والسنين، ثم في النجوم دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة والغراسة والاهتداء بها في السفر في البر والبحر.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام97] .

كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصرف لإصلاح العالم.

ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها حتى خفي عنا شدة مسيرها في فلكها لكانت تختطف بتوهجها لسرعة حركتها.

وانظر في هذه التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها مثل الثريا، فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت واحد لم يكن لشيء منها دلالة.

ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقلات المتنقلة منها، ولو كانت متنقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه ومن عظيم الحكمة خلق الأفلاك التي بها ثبات هذا العالم على نهاية من الإتقان لطول البقاء وعدم التغير فسبحان العليم القدير.

باب في حكمة خلق الأرض:

قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات48]

ثم انظر كيف جعل الله الأرض مهاداً ليستقر عليها الحيوان، ولا غنى له عن قوتها فجميع الأرض محل للنبات لقوته، ومسكن يسكنه من الحر والبرد، ومدفن يدفن فيه ما تؤذي رائحته من أجسام بني آدم وغيرها، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات25].

ثم ذلل طرقها لتنتقل فيها الخلق لطلب مآربهم، قال تعالى:﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات 31-33]. فإنها لو كانت رجراجة متحركة لم يستطيعوا أن يتقنوا شيئاً واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ترهيباً للخلق.

ثم إن الأرض طبعها الله باردة يابسة بقدر مخصوص فلو أفرط اليابسة عليها لما كانت تنبت هذا النبات.

ومن الحكمة في خلقها ووضعها أن جعل مهب الشمال أرفع من الجنوب لينحدر الماء على وجه الأرض فيسقيها ويرويها ثم يصير إلى البحر في آخر الأمر.

انظر إلى ما خلق الله فيها من المعادن وما يخرج منها من أنواع الجواهر المختلفة وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم.

ثم انظر إلى إرادة إجادته يجعلها هشة سهلة لزراعة الأقوات والثمر، ومن رحمته في لينها أن يسّر للناس حفر الآبار في المواضع المحتاجة إلى ذلك، ومن الحكمة في لينها تيسير السير إذ لو صلبت لعسر السير ولم تظهر الطرق.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك15]

ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال قال الله تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات32].
فجعل سبحانه الجبال لتستقر في بطونها المياه ويخرج أولاً فأولاً فتكون منه عيون وأنهار وبحار يرتوي بها العباد.

ومن الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها إلى إن يحله حر الشمس فيكون منه أنهار وسواق.

ومنها ما يكون فيه برك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به، ومنافع الجبال ما يثبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير، وما يثبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة، وفيها وهاد تنبت مزارع للأنعام ومزارع لبني آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجنح النحل.

ومن منافع الجبال ما يتخذه العباد من المساكن تقيهم الحر والبرد ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى، قال تعال: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ [الحجر82].

ومن فوائدها أن جعلت أعلاماً يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض.

ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفة الخائفة تتخذ عليها ما يحصنهم ويؤمنهم ممن تخافه.

وانظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير ولم يجعل ذلك ميسراً في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر21] فسبحان العليم الحكيم.

باب في حكمة البحر:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل14].

اعلم أن الله سبحانه وتعلى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض، فتأمل عجائب البحر فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما تشاهده على وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً في صدف تحت الماء وأثبت المرجان في جنح الصخور في البحر، فقال سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن22].

ثم انظر إلى عجائب السفن وكيف مسكنها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال وتحصيل مالهم من الأعراض وجعلها من آياته ونعمته، فقال: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة 164].

فما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلطف بعباده ويهون ذلك عليهم خلق الأخشاب متخلخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء، ثم أرسل الرياح بمقادير في أوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع إلى موضع أخر.

وانظر إلى ما يسره سبحانه في خلقه الماء إذا هو جسم لطيف قابل للاتصال والانفصال حتى يمكن سير السفن فيه، فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله في هذا كله.

باب في حكمة خلق الماء:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء30].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل60].

انظر إلى ما منّ به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو اضطر الإنسان إلى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها جميع ما يمكنه من خزائن الدنيا.

وانظر مع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها، ولو جعلها بقدر لضاق الأمر فيها وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا.

ثم انظر لطاقة الماء ورقته حتى ينزل من الأرض ويتخلخل أجزاءها ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنبات وهو من طبعه الهبوط، ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربة لإماعة الأغذية في أجواف الحيوان لينصرف الغذاء إلى موضعه، جعله لشاربه في شربه لذة عند حاجته إليه وجعله مزيلاً للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب، وبالماء يبل التراب فيصلح للبناء والأعمال، وبه يرطب كل يابس، وبه ترق الأشربة فيسوغ شربها، وبه تطفأ عاذبة النار إذا وقعت فيها فلا تلتهب فيه، وبه تزول الغصة إذا أشرف صاحبها على الموت، وبه يغتسل التعب الكل فيجد الراحة لوقته، وبه تستقيم المطبوخات، إلى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى لهم عنها.

فانظر في عموم هذه النعمة وسهولة تناولها مع الغفلة عن قدرها مع شدة الحاجة إليها فسبحان المتفضل العظيم.

باب الحكمة في خلق الهواء:

قال الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر22].

اعلم رحمك الله أن الهواء في خلقه تتخلله الرياح ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر، وباستنشاقه تعتدل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات.

ثم انظر إلى الحكمة في سوق السحاب به إلى موضع يحتاج إلى المطر فيها للزراعة.

ثم انظر كيف تسير السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها.

ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة التي تتخلل أجزاء العالم فينقي بحركته عفن الأرض، فلولاه لعفنت المساكن وهلك الحيوان بالوباء والعلل.

ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع في نقل السواقي والرمال إلى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب، وتستر وجوه جبال بالسافي فيمكن الزراعة فيه وما فصل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه، وكل ذلك بحركة البحر بالهواء فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد في أمورهم.

ثم انظر إلى كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الأرض قطرات، فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه. فسبحان اللطيف بخلقه المدبر لملكه.

ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول هذه النعمة وجليل قدرها كما نبه العقول عليها بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل10]

ثم من تمام النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم، فلو دام واحد منهما عليه لكان فساداً، ألا ترى إلى الأمطار إذا توالت وكثرت عفنت البقول والخضراوات، وهدمت المساكن والبيوت، وقطعت السبل ومنعت من الأسفار وكثير من الحرف والصناعات، ولو دام الصحو لجفت الأبدان والنبات،وعفن الماء الذي في العيون والأودية، فأضر ذلك بالعباد وإذا تعاقبا على العالم اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما ضرراً لآخر فصلحت الأشياء واستقامت وهذا هو الغالب من مشيئة الله.

باب في حكمة خلق النار:

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة 71-74] .

إن الله خلق النار وهي من أعظم النعم على عباده، ولما علم سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى إذا احتيج إليها وجدت واستعملت في كل أمر يحتاج إليها فيه، ومنافعها كثيرة ولا تحصى فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط، ولا صحة هضم لمن يستعملها في أكل وشرب فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر.

ثم انظر فيما يحتاج إليه الناس من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير، فلولاها لم يكن شيء من الانتفاع من هذه الأشياء.

وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر فقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ13].

وبه يلين الحديد فيعملون به أنواعاً من المنافع و الآلات للحروب مثل الدروع والسيوف.

فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد25]

ومنه يعمل آلات للحرث والحصاد، وآلات تتأثر بها النار، وآلات يطرق بها، وآلات لقطع الجبال الصمة، وآلات لنجارة الأخشاب، فولا لطف الله سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع.

ثم انظر إلى ما جعل الله تعالى في النار من الفرج والترح عندما تغشى الناس ظلمة الليل كيف يستضيئون بها ويهتدون بنورها في جميع أحوالهم فيجدون بوجودها أنساً حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم. ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستعينون بها في الحروب ومقاومة حصون لا تملك إلا بها ما أعظم قدر هذه النعمة.

باب في حكمة خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون12].إن الله عز وجل لما سبق في علمه خلق الخلق وبثهم في هذه الدار، وتكلفهم فيها للبلوى والاختبار وخلقهم الله متناسلين بعضهم من بعض، فخلق سبحانه الذكر والأنثى وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي حتى عجزوا عن الصبر وعدموا الحيلة في اجتناب الشهوة فساقتهم الشهوة المفطورة في خلقهم إلى الاجتماع، وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصاً به إلى إيداع الماء في القرار المكين الذي يخلق فيه الجنين، فاجتمعت فيه

النطفة من سائر البدن وخرجت ماء دافقاً مندفعاً من بين الصلب و الترائب بحركة مخصوصة، فانتقلت بسبب الإفلاج من باطن إلى باطن.

فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام، ثم كساها اللحم وشدها بالأعصاب والأوتار ونسجها بالعروق، وخلق الأعضاء وركبها فدور سبحانه الرأس وشق فيها السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ.

فجعل العين للبصر ومن العجائب سر كونها مبصرة للأشياء وركبها من سبع طبقات لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصة بها.

وانظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط بها وما خلق فيها من سرعة الحركة لتقي العين مما يصل إليها مما يؤذيها، فكانت الأشفار بمنزلة باب يفتح وقت الحاجة ويغلق في غير وقت، وجعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا تنقص نقصاً يضر بها، وفي مائها ملوحة لتقطيع ما يقع فيها، وجعل طرفيهما منخفضين عن وسطهما قليلاً لينصرف ما يقع في العين لأحد الجانبين، وجعل الحاجبين جمالاً للوجه وستراً للعينين وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوهة، وجعل شعر الرأس واللحية قابلاً للزيادة والنقص يقصد به الجمال.

ثم انظر إلى الفم واللسان، فجعل الشفتين ستراً للفم، وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال، وهما معينان على الكلام، واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الإنسان وتقليب الطعام وإلقائه تحت الأضراس.

ثم جعل الأسنان أعداداً متفرقة ولم تكن عظماً واحداً، فإن أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقي، وجمع فيها بين النفع والجمال، وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة إليها على الدوام، وفي الأضراس كبر و تسريف لأجل الحاجة إلى درس الغذاء، وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطعام وجمالاً للفم.

ثم انظر كيف خلق الفم نداوة محبوسة لا تظهر إلا في وقت الحاجة إليها، فجعلت ليبل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويفه. فإذا فقد الأكل عدمت تلك النداوة الزائدة التي خلقت للترطيب، وبقي منها ما يبل اللهوات والحلق لتصوير الكلام ولئلا يجف وجعل للآكل لذة الأكل فجعل الذوق في اللسان وغيره ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من الملذوذ وليجتنب الشيء الذي لا يوافقه، ويعرف بذلك حد ما تصل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة.

ثم إن الله تعالى شق السمع وأودعه رطوبة مرة يحفظ بها السمع من ضرر الدود ويقتل أكثر الهوام الذين يلجون السمع وحفظ الأذن بصدفة لتجمع الصوت فترده إلى صماخها، وجعل فيها زيادة حسن لتحسن بما يصل إليها مما يؤذيها من هوام وغيرها، وجعل فيها تعويجات ليتطرد فيها الصوت، ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فينتبه فيتأثر وينتبه صاحبها من النوم.

ثم انظر إلى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء، كيف رفع الأنف في وسط الوجه فأحسن شكله، وفتح منخريه وجعل فيها حاسة الشم ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه، وليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب الخبائث القذرة.

ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الأصوات ودور اللسان في الحركات و التقطيعات وجعل الحنجرة مختلف الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملامسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلف بسبب ذلك الأصوات فلم يتشابه صوتان، حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض.

ثم انظر لخلق اليدين تهديان إلى جلب المقاصد ودفع المضار، وكيف عرض الكف وقسم الأصابع الخمس، وقسم الأصابع بأنامل، وجعل الأربعة في جانب والإبهام في جانب آخر فيدور الإبهام على الجميع، وبهذا الوضع صلح بها القبض والإعطاء.

ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من روائحها حتى لا تضعف بها ويلتقط الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل لولاها، وليحك بها جسمه عند الحاجة إلى ذلك، فهو لا صلب كصلابة العظام ولا رخو كرخاوة الجلد يطول ويخلق ويقص ويقصر، ثم جعله يهتدي به إلى المحك في حالة نومه ويقظته ويقصد المواضع إلى جهتها من جسده.

ثم انظر كيف مدّ منه الفخذين والساقين وبسط القدمين ليتمكن بذلك من السعي، وزين القدمين بالأصابع، وجعلها زينة وقوة على السعي، وزين الأصابع أيضاً بالأظفار وقواها بها.

ثم انظر كيف خلق هذا كله من نطفة مهينة، ثم خلق منها عظام جسده فجعلها أجساماً قوية صلبة لتكون قواماً للبدن وعماداً له،وقدرها تبارك وتعالى بمقادير مختلفة وأشكال متناسبة، فمنها صغير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت عريض ودقيق، ثم أودع في أنابيب هذه العظام المخ الرقيق مصوناً لمصلحتها وتقويتها.

ولما كان الإنسان محتاجاً إلى جملة جسمه وبعض أعضائه لتردده في حاجاته لم يجعل الله سبحانه عظامه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة، وبينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها.

ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتاد أثبتها بأحد طرفي العظم وألصق الطرف الآخر كالرباط، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجية منها، ومن الآخرة نقراً غائصة فيها توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق.

ثم انظر كيف جعل الرأس مركباً من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور، وألف بعضها إلى بعض بحيث استوت كرة الرأس، فمنها ستة تختص بالقحف، وأربعة وعشرون للحي الأعلى، واثنان للحي الأسفل، والبقية من الأسنان بعضها عريض يلح للطحن وبعضها حاد يصلح للقطع.

ثم جعل الرقبة مركز الرأس، فركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض.

ثم ركب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة ووصل به من أسفله عظم العصعص وهو مؤلف من ثلاثة أخرى.

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين.

فجملة عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل.

فانظر كيف خلق الباري سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة. والمقصود تعظيم مدبرها وخالقها وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصها بهذا القدر المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحداً كان وبالاً واحتاج الإنسان إلى قلعه، ولو نقص منها واحد لاحتاج الإنسان إلى جبره فجعل سبحانه وتعالى في هذا الخلق عبرة لأولي الأبصار وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها.

ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهي العضلات. فخلق في بدن الإنسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجتها، فأربعة وعشرون منها لحرة العين وأجفانها وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه.

وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين ومنابتها وسعتها فأعجب من هذا.

ثم عجائب ما فيه من المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ثم انظر إلى ما شرف به وخص به خلقه بأن خلق ينتصب قائماً ويستوي جالساً ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل ولم يخلق مكبوباً على وجهه كعدة من الحيوانات.

ثم انظر من حيث الجملة إلى ظاهر هذا الإنسان وباطنه فتجده مصنوعاً صنعة بحكمة تقضي منها العجب.

وقد جعل سبحانه أعضاءه تامة بالغذاء، والغذاء متوال عليها، لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير لا يتعداها، فإنها لو تزايدت بتوالي الغذاء عليها لعظمت أبدان بني آدم وثقلت عن الحركة، وعطلت عن الصناعات اللطيفة ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها، واللباس كذلك، ومن المساكن مثل ذلك.

وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقاً بخلقه.

وتأمل لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً وبصراً وحياة لم يقدروا على ذلك.

فانظر كيف خلقها سبحانه في الأرحام وشكلها فأحسن تشكيلها، وقدرها فأحسن تقديرها، وصورها فأحسن تصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة، فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها، ورتب عروقها وأعصابها ودبر ظاهرها وباطنها، وجعل فيها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبباً لبقائها مدة حياتها.

ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة من القلب والكبد والمعدة والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل عضو بشكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص.

فجعل المعدة لنضج الغذاء عصباً معيناً شديداً لحاجتها وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه، وجعل طحن الأضراس أولاً معيناً للمعدة على جودة طحنه وهضمه، وجعل الكبد لإحالة الغذاء إلى الدم فيجتذب منه كل عضو من الغذاء ما يناسبه.

وجعل الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد، فالطحال لجذب السوداء والمرارة لجذ الصفراء، والكلية المائية عنه والمثانة لقبول الماء عن الكلية، ثم يخرجه في مجرى الإحليل، والعروق والكبد في اتصال الدم منه إلى سائر أطراف البدن، وجعل جوهرها أتقن من جوهر اللحم ليصونه ويحصره فهي بمنزلة الظروف والأوعية.

ثم انظر كيف دبره في الرحم ولطف به ألطافاً يطول شرحها.

ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدريج إلى حين كماله وبلوغه، وانظر وفكر في سر كونه يولد جاهلاً غير ذي عقل وفهم، فإنه لو كان ولد عاقلاً فيهما لأنكر الوجود عند خروجه إليه حتى يبقى حيران تائه العقل إذا رأى مالا يعرف، وورد عليه ما لم يره ولم يعهد مثله.

ثم كان لايوجد له من الرقة له والحلاوة والمحبة في القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه، فتبين أن ازدياد العقل والفهم فيه على التدريج أصلح به.

ثم انظر فيما إذا اشتد خلق فيه طريقاً وسبباً للتناسل وخلق في وجهه شعراً ليميزه عن شبه الصبيان والنسوان ويجمله ويستر به غصون وجهه عند شيخوخته، وإن كانت أنثى أبقى وجهها نقياً من الشعر لتبقى لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما في ذلك من بقاء النسل.

ولو لم يجر له الدم غذاء وهو في الرحم ألم يكن يذوي ويهلك ويجف، ولو لم يزعجه المخاض عند استكماله ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه ؟ ولو لم يوافه اللبن عند ولادته ألم يكن يموت جوعاً وعطشاً أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ؟ ولو لم يخلق له الأسنان في وقتها ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وازدراده ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه ؟

فكر في شهوة الجماع الداعية لا حيائه والآلة الموصولة إلى الرحم النطفة والحركة الموجبة لاستخراج النطفة وما في ذلك من التدبير المحكم.

فكر في جملة أعضاء البدن وتهيئة كل عضو منها للأرب الذي أريد منها، فالعينان للاهتداء بالنظر، واليدان للعلاج والحذف والرفع، والرجلان للسعي، والمعدة لهضم الطعان، والكبد للتخليص والتمييز، والفم للكلام ودخول الغذاء، والمنافذ لدفع الفضلات.

فكر في وصول الغذاء إلى المعدة حتى ينضجه ويبعث صفوه إلى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء، ولكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها فإنها خلقت دقيقة لا تحمل الغث فتقبله بإذن الله دماً وتنفذ إلى سائر البدن في مجار مهيأة لذلك فيصل إلى كل شيء من ذلك ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك.

ثم ينفذ ما يكون من خبث وفضول إلى معابض وأعضاء أعدت لذلك، فكونها كالأوعية تحمل هذه الفضلات لكيلا تنتشر في البدن فتقسمه.

ثم انظر هل تجد في خلق البدن شيئاً لا معنى له هل خلق البصر إلا ليدرك الأشياء والألوان، فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها، هل كان في الألوان منفعة ؟ ولو لم يكن لخلق الأبصار نور

خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر ؟ وهل خلق السمع إلا ليدرك الأصوات ؟ فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة، وكذلك سائر الحواس.

فكر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم إلا بها: منها الضياء والهواء، فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها البصر ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع لم يكن السمع يدرك الصوت.

انظر كيف صارت هذه الجوارح وهذه الأوصاف التي بها صلاح الإنسان محصلة ومبلغة لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده، وإذا فقد شيئاً اختل أمره وعظم مصابه.

فكر في الأعضاء التي خلقت أفراداً وأزواجاً، وما في ذلك من الحكمة والصواب، فالرأس مما خلق فرداً، وإن كثيراً من الحواس قد حواها رأس واحد ولو زاد عليه شيء كان ثقلاً لا يحتاج إليه، واليدان خلقتا أزواجاً ولم يكن للإنسان خير في أن يكون يلم بيد واحدة لاختلال ما يعالجه من الأمور. وحكمة الرجلين ظاهرة.

فكر في تهيئة آلات الصوت، فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لا صاغة الحروف والفم.

انظر إلى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها إلى الرئة فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع، وما في اللسان من تقليب الطعام وإعانته على تسويغ الطعام والشراب، وما في الأسنان من المعونة، ثم هي كالمسند للشفتين تمسكها وتدعهما من داخل الفم وبالشفتين يرتشف الشراب، ثم هما على الفم كالباب.

فكر في الدماغ تجده قد لف بعضه فوق بعض ليصونه من الأعراض، وأطبقت عليه الجمجمة، والشعر ستر لها وجمال، ولتبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك. فحصن سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه مهم وأنه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحس.

انظر كيف غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاؤه وأتقنها وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه وأن ذلك اللائق به.

ثم انظر كيف جعل في الحلق منفذين: أحدهما للصوت وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة، والآخر للغذاء وهو المري الواصل إلى المعدة، وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل إليه، ثم جعل الرئة مروحة الفؤاد لا تفتر ولا تخل تأخذ وترد بغير كلفة لئلا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي إلى التلف، ثم ملأ الجو هواءً لهذه المصلحة ولغيرها.

ثم انظر كيف جعل منافذ البول والغائط أسراحاً يضبطها لكي لا يجري جرياناً دائماً فيفسد على الإنسان عيشته.

ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيراً كثيفاً ليقي الإنسان من ألم الجلوس على الأرض.

انظر لو كان ذكر الرجل مسترخياً أبداً كيف يصل الماء إلى موضع الخلق، ولو كان منعظاً أبداً كيف يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك ؟ بل جعله مستوراً كأنه لم تخلق له شهوة، وجعل المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الإنسان في أستر موضع من جسده مغيب فيه تلتقي عليه فخذاه بما عليها من اللحم فتواريه به ويخفي ذكره، وذلك مخصوص بالإنسان لشرفه.

ثم انظر في خلق الشعر والأظفار جعلا عديمي الحس حتى لا ينال الإنسان ألم عند التزيين بقصهما، ثم تفكر في الشعور لو نبتت في العين لأعمت البصر، أو في الفم لنغصت الأكل والشرب، أو في راحة الكف لنفدت لذة اللمس وبعض الأعمال، أو في الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها.

انظر فيما جبل عليه الإنسان من الاحتياج إلى المطعم والنوم والجماع، فقد جعل في طبعه محركاً يقتضيه ويستحثه، فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته، وكذلك الشراب، والنوم فيه راحة البدن وعموم القوى، والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه.

انظر كيف رتبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب. وانظر كيف جعل الله فيه الحفظ والنسيان وهما متضادان، وجعل للإنسان في كل منهما ضروباً من المصالح.

ثم انظر إلى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء فإن كثيراً من الأمور الواجبة إنما تفعل لسبب الحياء من الناس.

وانظر ما أنعم الله به من النطق الذي يميزه به عنه البهائم فيعبر بما في ضميره ويفهم عن غيره ما في نفسه، وكذلك نعمة الكتابة التي تفيد أخبار الماضين للباقين وأخبار الباقين للآتين، و بها تخلد في الكتب العلوم والآداب ويعلم الناس ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات.

ثم انظر إلى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به ما يؤذيها، وما خلق فيه من الحسد فيه يسعى في جلب ما ينتفع به غير أنه مأمور بالاعتدال في هذين الأمرين. بل يجب أن يقتصر في حالة الغضب على دفع الضرر، وفي الحسد على الغبطة وهي إرادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره.

ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضاً صلاحه، فمن ذلك الأمل فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل، فكان الأمل سبباً لعمل الحاضرين ما يقع به انتفاع الآتين،وهكذا يتوارث إلى يوم الدين.

ومنع الإنسان من علم أجله ومبلغ عمره لمصلحة، فإنه لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لامتهن الحياة ولم ينشرح لوجود النسل ولا لعمارة أرض، ولو علمها وكانت طويلة لانهمك في الشهوات وتعدى الحدود واقتحم المهلكات، ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عما يؤديه إلى إتلافه، فكان في جهله بمدة عمره مصلحة حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ومبادرة صالح الأعمال قبل الفوات.

ثم انظر إلى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها، وأصناف الفواكه مع اختلاف ألوانها وبهجتها وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها، وطيور يلتذ بسماعها، ونقود وجواهر يقتنيها ويصل بها إلى أغراضه ويجدها في مهماته، وعقاقير يستعملها لحفظ صحته، وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره وأزهار وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها، وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها، وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهم.

ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد في تملك ما ينتفع به بنو آدم ليتميز منهم الفقير من الغني، فيكون ذلك سبباً لعمارة هذه الدار ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم في غالب الأحوال.

خاتمة :

إن الباري سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمي وكرمه، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء70]. فكان من أعظم ما شرفه به وكرمه العقل الذي تنبه به على البهجة وألحقه بسببه بعالم الملائكة، حتى تأهل به لمعرفة بارئه ومبدعه بالنظر في مخلوقاته واستدلالاً له على معرفة صفاته بما أودعه في نفسه من حكمة وأمانة. قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات21] فكان نظره في نفسه، وفيما أودع الباري سبحانه فيه من العقل الذي يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود بارئه ومدبره وخالقه ومصوره. فإنه ينظر في العقل كيف فيه التدبير وفنون العلم ومستمر المعرفة وبصائر الحكمة والتمييز بين النفع والضر، وهو مع القطع بوجوده لا يرى له شخصاً ولا يسمع له حساً ولا يحس له مجلساً ولا يشم له ريحاً ولا يدرك له صورة ولا صمعاً، وهو مع ذلك آمر ومطاع وراج ومفكر ومشاهد الغيوب ومتوهم للأمور اتسع له ما ضاف عن الأبصار ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه حتى كأنه شاهد أبين من رأي العين فهو موضع الحكمة ومعدن العلم.

وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير ويفرق بين دقائق الصنع، فدل جهله بنفسه وعلمه بما يدبر ويميز أنه مركب مصنوع مصور مدبر مقهور، لأنه مع حكمته واتقاد بصيرته عاجز مهين يريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينساه فيذكره وهو مع ما علم جاهل بحقائق ما علم.

فاستدل بعلمه وجسده عن حقيقة ما علم أنه مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق المريد العليم عز وجل.

ثم إنه خلق في الإنسان الهوى موافقاً لطباعه فإن استعمل نور العقل فيما أمر به ورد مورد السلامة وفاز غداً بدار الكرامة. وإن استعمله في أغراض نفسه وهواها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب. ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه شرفت بذلك.

باب في حكمة خلق الطير:

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل79].

إن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران ولم يخلق فيه ما يثقله، وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذائه فقسم لكل عضو منه ما يناسبه.

فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي أخف فيه أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه.

وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغني به عن الريش في الحر والبرد. وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة، لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغني عن مواضع فيها الطين والماء فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه فأغناه سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران.

وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها، وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ليزداد مطلبه عليه سهولة.

وخلق صدره ودائره ملفوفاً مربياً على عظم كهيئة نصف دائرة حتى يخرق في الهواء بغير كلفة وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران.

وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما يتغذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك، وجعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونة ما هي في العظم لكثرة الحاجة إلى استعماله وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان.

وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منسوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران، ولأن حركة الطيران قوية فهو يحتاج إلى التقان لأجل الريش وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد ومعونة متخلله الهواء للطيران.

وخص الأجنحة بأقوى الريش وأنبته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة إليه. وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له. وجعل في ريشه من الحكمة أن البلل لا يفسده الأدران لا توسخه.

وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته. وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته.

ولما كان طعامه يبتلعه بلعاً بلا مضغ جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية، وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً، وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن الطعام طحناً يستغني به عن المضغ وثقل الأسنان.

ثم إنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران، انظر إلى ما أنزله وألهمه الرقاد على بيضه فيحصنه مدة الحضانة، من ألهمه أن يلتقط الحب فإذا ماع في بطنه عذى به أفراخه.

ثم انظر كيف احتمل هذه المشقة وليست له رؤية ولا فكر في عاقبة ولا له أمل يأمله في أفراخه، فهل هذا قطعاً إلا إلهام إلهي من فعل الله سبحانه.

انظر كيف ألهم معرفة حمل الأنثى منه بالبيض فألهموا حينئذ حمل الحشيش وتوطئته في موضع التحضين والولادة لتكون الرطوبة والتوطئة تحفظ البيض ويكون البيض محفوظاً في المهاد الذي يمهدونه ويستحسنونه في حال تحصينه.

انظر إلى الحمام كيف ألهم معرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضينه للبيض حتى يكتشف عن الفرخ ويخرجه وإن اتفق في البيض فساد بسبب عرق قام وتركه.

ثم انظر إلهامه بما يزق به فرخه، ثم انظر عند خروج الفرخ من البيضة كيف يسنده إلى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به.

ومن الطير مما يخلق على هيئة أخرى لحكمة أخرى ولتعلم أن قدرة الله سبحانه لا تنحصر في نوع واحد.

انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم. انظر إلى خلق البيضة ففيها المخ الأصفر الخابر والماء الأبيض الرقيق فبعضه لينشأ منه جسده، وبعضه يتغذى به إلى أن تنشق عنه.

انظر في حوصلة الطائر فإن مسلك طعامه إلى القانصة ضيق لا ينفذ إليه إلا قليلاً قليلاً، فلو كان لا يلتقط حبه حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال الأمر عليه مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه ما تؤذيه، فصار ما يحتكره احتراساً لشدة حذره فجعلت له الحويصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليؤدي فيها ما أدرك من الطعامة بسرعة ثم ينفذ إلى القانصة على مهل.

وفيها حكمة أخرى فإن الطير الذي يزق أفراخه يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه.

ثم تأمل ريش الطائر فإنك تجده منسوجاً نسج الثوب، وفيها من اليبس ما يمسك ما حولها ومن اللين مالا ينكسر، وهي حاوية قد ألف بعضها إلى بعض ثم تجده إذا فتحته ينفتح قليلاً ولا ينشق ليدخله الريح فتثقله عن طيرانه، وتجد في وسط الريشة عموداً غليظاً يابساً مثبتاً قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته وهي مع صلابته مجوفة ليخف عليه طيرانه.

انظر إلى الطائر الطويل الساقين والحكمة في طولهما أنه يرعى أكثر رعيه في صحصاح يتأمل ما يدب في الماء فإذا رأى شيئاً من حاجة خطا خطواً رفيقاً حتى يتناوله، فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو إلى الصيد يصل بطنه إلى الماء فيهزه فيذعر منه الصيد فيبتعد عنه.

انظر إلى العصافير وغيرها فإنها تطلب رزقها في طول نهارها فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعاً محله، وهو أمر جار على سنة الله في خلقه، فإن صلاحهم في السعي في طلب الرزق.

انظر غلى هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا ليلاً مثل البوم والهام والخفاش والبعوض والفراض وشبهه فإنها منبثة في هذا الجو.

انظر إلى الخفاش لما خلق بغير ريش كيف خلق له ما يقوم مقامه وجعل له فم وأسنان وكل ما في البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وأقدره على الطيران.

فأظهر سبحانه فيه أن قدرته على الطيران لا تقصر على ما خلق له الريش ولا تنحصر في نوع واحد فسبحان القاضي العليم.

انظر إلى الذكر والأنثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضانة، ثم ألهمهما الحرص على الحضانة فلا يطيلان الغيبة على البيض إذا خرجا لنيل القوت.

ثم انظر إلى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض ويقرب أوان وضعها كيف يطردها وينقرها، ولا يدعها تستقر خارجاً عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ لوضعه.

انظر كيف يزق أفراخه ويعطف عليها مادامت محتاجة إلى الزق حتى إذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها صارت إذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها.

انظر ما خلق الله تعالى في الكواسر من شدة الطيران حتى لا يسبق له من يطلبه، ومن قوة المخلب وجدته في المنقار والأظفار.

انظر إلى طير الماء لما جعل قوته في الماء كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه فجعل سبحانه وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته.

باب في حكمة خلق البهائم:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل8]

إن الله خلق البهائم لمنافع العباد امتناناً عليهم، فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعصب شديد وعروق شداد وضم بعضها إلى بعض ولم يجعلها لينة رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة، لأنها أريد منها القوة للعمل والحمل.

ثم خلقها الله سميعة بصيرة ليبلغ الإنسان حاجته، ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله لتذل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا أكدَّها عند حاجته إليها في الطحن وحمل الأثقال عليها إلى غير ذلك.

وقد علم الله أن بالناس حاجة إلى أعمالها وهم لا يطيقون أعمالها ولا يقدرون عليها فكان قضاؤه على هذا وتسخيرها لهم من النعم العظيمة.

انظر في خلق أصناف من الحيوان لما فيه صلاح كل صنف، منها آكلات اللحم لما قدر أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خُلقت لها مخالب وسرعة منهضة وأنياب.

وآكلات النبات لما قدر أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد. خلقت لبعضها أظلاف كفتها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى، ولبعضها حوافر مستديرة ذات قعر كأخمص القدمين لتنطبق على الأرض وتتهيأ للحمل والركوب.

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان كيف خلقت ذوات أسنان حداد وأضراس شداد وأفواه واسعة وأعينت بسلاح وأدوات تنال بذلك ما تطلبه فإن ذلك كله صالح للصيد.

انظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف الحيوان ما يشاكله وما فيه صلاحه وحياته.

انظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف تجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمل ما يحتاج الآدميون.

وترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج يدرج ويلقط عقيب خروجها من البيضة، وما كان منها ضعيفاً لا نهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل في الأمهات عطفاً عليها، فصارت تعين الطعام في حواصلها ثم تمجه في أفواه فراخها ولا يزال كذلك حتى ينهض وتستقل، فكل أعطي من اللطف والحكمة بقسط فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى قوائم الحيوان كيف تنتقل أزواجاً لتتهيأ للمشي فلو كانت أفراداً لم تصلح ذلك. فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى، وذو الأربع ينقل اثنين ويعتمد على اثنتين، وذلك من خلاف، لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسرير، ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه.

أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن، والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرثه، والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة في الحروب وقاية لراكبها، والقطيع من الغنم يرعاها صبي واحد فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها وما ذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروي فكان ذلك سبباً لتذليلها فلم تلتو على أحد من الناس وإن أكرها في كثير من الأحوال.

وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس وأنكتهم نكاية شديدة عظيمة ولعسر زجرها ودفعها، ولاسيما إذا اشتدت حاجتها في طلب قوتها.

ألا ترى الكلب كيف سُخِّر في حراسة منزل صاحبه حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل إلى صاحبه ما يؤذيه، ثم إنه أعان صاحبه بقوة صوته حتى ينتبه من نومه فيدفع عن نفسه، ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء فطبع على هذه الخلال لمنفعة الإنسان في الحراسة والاصطياد، ولما جعله الباري سبحانه حارساً أمده بسلاح وهي الأنياب والأظفار واللهث القوي ليذعر به السارق والمريب وليجتنب المواضع التي يحميها.

انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحاً مثبتاً على قوائم أربع لتمهيد الحمولة، وجعل فرجها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها.

انظر كيف كسيت أجساد البهائم الشعر والوبر ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفاء، وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره. وكفيت مؤونة ما يضر بها بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج إلى استبدال بها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمي.

انظر فيما ألهم الله البهائم والوحوش في البراري فإنها تواري أنفسها كما يواري الناس موتاهم فما أحس منها بالموت توارى بنفسه إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت.

تأمل الدواب كيف خلق أعينها شاخصة أمامها لتنظر مابين يديها فلا تصدم حائطاً ولا تتردى في حفرة، انظر إلى فمها مشوقاً إلى أسفل الخطم لتتمكن من نيل العلف والرعي، وألهمت قضم ما فيه صلاحها وترك مالا غذاء لها فيه ولا صلاح.

انظر ما كان من البهائم كيف يمز الماء في شربه مزاً وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما في شربها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكاً يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه.

انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته وكيف خلق كأنه غطاء في طرفه شعر فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها، ومنها كأنه مدية في يدها تذب بها وتطرد عنها ما يضر بها، ثم إنها تعطف برأسها فتطرد به ما في مقدمها من الذباب أيضاً.

ثم إن الدابة أيضاً أعينت بحركة مختصة وذلك أن الذباب إذا وقع عليها في مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكاً تطرد به الذباب وغيره عنها لا. وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين.

انظر إلى خرطوم الفيل وما فيه من الحكمة والتدبير فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف وإيصاله إلى فمه.

انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه ومنخراً يتنفس منه وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره أو يناول من هو راكب عليه.

انظر إلى خلق الزرافة لما كان منشؤها في رياض شاهقة خلق لها عنقاً طويلاً لتدرك قوتها من تلك الأشجار.

تأمل في خلق الثعلب فإنه إذا حفر له بيتاً في الأرض جعل له فوهتين إحداهما ينصرف منها والأخرى يهرب منه إن طلب.

وجملة القول في الحيوان أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق فيه الانقياد والتذلل وجعل قوته النبات.

وما جعل منه للحمل جعله هادئ الطبع قليل الغضب منقاداً منفعلاً على صور يتهيأ منه الحمل.

وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نظم خلق فيه هذا القبول للتعليم ليستعين العباد بصيده وحراسته، ومن جملة ذلك الفيل فإنه ذو فهم مخصوص به وهو قابل للتأنس والتعلم فيستعان به في الحمل والحروب.

ومنها ماله غضب وشر إلا أنه متأنس بالإنسان لمنفعته كالهرة.

ومن الطير ما للناس به انتفاع لما فيه من الألفة والتأنس، فمن ذلك الحمام يألف موضعه فشغل بسببه في الإخبار بسرعة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وجعله الله سبحانه وتعالى كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به.

ومن ذلك البازي فإن طباعه تنتقل إلى التأنس، وإن كان في طبعه مبايناً إلا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد.

باب في حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت ودود القز والذباب وغير ذلك:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام38]

انظر إلى النمل وما ألهمت له في احتشادها في جمع قوتها وتعاونها على ذلك وإعداده لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حر أو برد، وتراها إذا عجز بعضها عن حمل ما حمله أو جهد به أعانه آخر فيه.

ثم ألهمت حفر بيوت في الأرض تبتدىء في ذلك بإخراج ترابها وتقصد إلى الحب الذي منه قوتها فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض، ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف ثم إنها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض خوفاً من السيل أن يغرقها.

انظر إلى النحل وما ألهمت إليه من العجائب والحكم، فإن الباري سبحانه جعل لها رئيساً تتبعه وتهتدي به فيما تناله من أقواتها، فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهما الآخر وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الافتراق.

ثم إنها ألهمت أن ترعى رطوبات من على الأزهار فيستحيل في أجوافها عسلاً فيه شفاء للناس وفيه غذاء وملاذ للعباد.

ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع في أرجلها لتوعي فيه العسل وتحفظه فلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الأجناح.

ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها، وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ولها في ترتيب بيوتها من الحكمة في بنائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل، ولها حاجة أخرى تجعل فيه برازها مباعداً عن مواضع العسل.

انظر إلى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة فإن الله خلق في جسدها رطوبة تنسج منها بيتاً لتسكنه وشركاً لصيدها فهو مخلوق من جسدها.

وجعل الله غذاءها من أقواتها ينصرف إلى تقويم جسدها وإلى خلق تلك الرطوبة وتكون سعة بيتها بحيث يغيب شخصها وللشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك.

فإذا أحست أن شيئاً من ذلك وقع في شركها خرجت إليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت إلى بيتها فتقتات بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات.

وإن كانت مستغنية في ذلك الوقت شكلته وتركته إلى وقت حاجتها فبلغت في ذلك ما يبلغه الإنسان بالفكرة والحيلة، كل ذلك لإصلاحها ولنيل قوتها ولتعلم أن الله هو المدبر لهذا.

انظر من العجائب دود القز فإن هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الإنسان ومنافعه؛ فإن هذا الحيوان يخلق من جسمه الحرير، وذلك أن صورة البزر تحضن حتى إذا حمي عاد دوداً كالذر فيوضع هذا الدواء على ورق التوت فيتغذى منه فلا يزال يرعى منه حتى يحفر جسمه فينبعث إلى غزل نفسه جوزة الحرير فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة الحرير ويصير هو جسماً ميتاً لا حياة فيه.

ثم انظر فإن الباري سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس ببقاء نسله فعندما ينتهي من غزل الحرير ويعفى ذلك الجسم يقلبه الله إلى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على بساط أو غيره وهو في رأي العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى

ويقيم لحظة على ظهرها فتحبل لوقتها مثل ذلك البزر الذي حضن أولاً ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع إذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر.

ثم انظر الذبابة ومما أعينت به في نيل قوتها فإنها خلقت بأجنحة تسرع بها وتهرب بها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع وتفضل اثنتين، فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللذين تليهما، وذلك لرقة أجنحتها ولأن عينيها لم يخلق لهما الهداب لأنهما بارزتان عن رأسها وجعل هذا الحيوان يتعلق ببني آدم ويقع عليهم دائماً وينغص عليهم عيشهم ليعرفهم الباري سبحانه هوان الدنيا حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها.

تأمل العقاب عندما يصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر ولا يجد فيها موضعاً لأكله، فيصعد بها في مخالبه حتى إذا أبعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها فتهشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها، فانظر كيف ألهم الطريق في نيل قوته من غير عقل ولا روية.

انظر إلى الغراب لما كان مكروهاً خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه وألهم الاحتيال في إخفاء عشه لصون فراخه وقل احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره، فهذا أبداً دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة.

وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويأكل من دم البعير ومن أرواث الدواب وقت تبرزها وإذا وجد شيئاً من قوته وأكل منه وشبع دفن باقيه حتى يعاوده وقتاً آخر.

انظر إلى الحدأة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها فإنها ترى ما تقتات به في الأرض مع علوها في الجو فتخط نحوه بسرعة، وألهمت معرفة من هو مقبل ومن هو مدبر فتخطف ما تخطفه من الناس من ورائهم، وأعينت بأن جعلت لها مخالب كأنها السنانير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى الحرباء وما فيه من التدبير فإنه خلق بطيئاً في نهضته وكان لابد له من قوته، فخلقت عيناه تدور لكل جهة من غير حركة في جسده ولا قصد إليه ويبقى جامداً.

ثم أعطي مع السكون وهو أنه يتشكل في لون الشجر التي يكون عليها ثم إ ذا قرب منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة خفوق البرق، وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه.

انظر إلى الحيوان الذي يسمى سبع الذباب وما أعطي من الحيلة والرفق فيما يقتات به، فإنك تجده يحس بالذباب قد وقع قريباً منه فيركد ملياً حتى كأنه ميت فإذا أحس أن الذباب قد اطمأن

دب منه دبيباً دقيقاً حتى لا ينفره حتى إذا صار قريباً منه بحيث يناله بوثبة وثب عليه فأخذه فإذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيتغذى منه بما يلائمه.

انظر إلى الذر والبعوض الذي أوهن الله قوتها وأصغر قدرها وضرب بها المثل في كتابه، هل تجد فيه نقصاً عما فيه صلاحها من جناح تطير به ورجل تعتمد عليها وبصر تقصد به موضعاً تنال فيه قوتها وآلة لهضم غذائها وإخراج فضلته.

ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم فسواها وقدر أعضاءها واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها.

تفكر كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن مابين الجلد واللحم دماً وهو الذي منه غذاؤها وكيف همتها التي قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذي ألهمها ربها أن فيه غذاءها، وكيف خرق سمعها وكيف سمعت حس من يقصدها وكيف عرفت أن نجاتها في الفرار إذا ولت هاربة ممن قصدها. فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علواً كبيراً .

باب في حكمة خلق السمك وما تضمن خلقها من الحكم:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾ [النحل14]

انظر واعتبر بما خلق الله تعالى في البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال، فإنه تعالى لما جعل مسكنة الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئة، وخلقت له مكان القوائم أجنحة شداد يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء، وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة كأنها درع لتقيه ما يعتدي عليه وما يؤذيه، وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة خلق له جلداً غليظاً متقناً يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره وخلق له بصراً وسمعاً وشماً ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثره.

وجعل أكثر أصنافه يحمل ولم يجعل الحمل منه مخصوصاً بالأنثى دون الذكر كحيوان البر، بل جعل الذكر والأنثى جنساً واحداً يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم ذرية مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر فيخلق من جوف واحدة عدداً لا يحصى.

ومنه صنف يتوالد بالذكر والأنثى وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاة والتمساح وما شاكلهما فيتولد منها بيض.

ولما علم الله سبحانه وتعالى أن السمك في البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بيضه ألقى الروح في بيض جميعه عندما يولد فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر إلى أحد في كمال خلقه.

ثم إن الله سبحانه كثّره، لأن منه قوت جنسه وقوتاً لبني آدم والطير.

ثم انظر إلى سرعة حركته وانظر إلى حركة ذنبه وانقسامه، وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل السفينة برجلها في سيرها، وخلقت أرياشه ألواحاً من جانبيه ليعتدل بهما أيضاً في سيره فهو بمنزلة المركب.

وانظر إلى عظامه كيف خلقت مثل العمد يبنى عليها، ففي كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو.

وانظر إلى ما كان منه كاسراً كيف أعين على نيل قوته لصلابة اللحم وقوة النهضة وكثرة الأسنان.

انظر إلى ما خلق الله في البحر ضعيفاً قليل الحركة مثل أصناف الصدف والحلزون كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه، وجعل له بيتاً وسكناً، وجعل ما يولي جسده ناعماً أنعم ما يكون.

وأصناف منه خلقت في محائز مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها، فجعل الله لها من الجبال والحجارة مغطى، وجعل لها أسباباً تلتصق بها في الجبل فلا يستطاع إخراجها إلا بغاية الجهد، وجعل لها قوتاً من رطوبة الجبل تتأتى حياتها بذلك.

وأما الحلزون الذي بيته كأنه كوكب فإنه يخرج رأسه يرعى، فإذا أحس بما يؤذيه أدخل رأسه في بيته وختم عليه بطابع صلب يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة.

وانظر إلى أنواع من السمك يرعى قرب البر الصغير منها والجاً في الأعماق، وخلق الله في جوفه صبغاً كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضلة غذائه، فإذا أحس ما يؤذيه أخرج من جوفه ما يعكر موضعه، ثم يذهب في الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغيير الماء.

انظر إلى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة مثل أجنحة الخفاش ينتقل بها من موضع إلى موضع في الهواء من وجه الماء يظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر.

انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف وكثيراً ما يكون في الأنهار، وجعل الله فيه خاصيته تصونه إذا اقترب منه يد من يأخذه وفيه الروح تخدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب.

باب في حكمة خلق النبات وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل60]

انظر إلى ما على وجه الأرض من النبات وما في نظره من النعم في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر الأرض.

ثم انظر إلى ما جعل البارئ فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى، وخلق فيه الحب والنوى مخلوقاً لحفظ أنواع النبات، وجعل الثمار للغذاء والتكلفة والإتيان منها للعلف والرعي، والحطب للوقود، والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن ولغير ذلك من الأعمال، والورق والأزهار والأصول والعروق والفروع والصموغ لضروب من المصالح لا تحصى.

ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل، والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الاقتيات وما فضل ادخر للأمور المهمة والزراعات.

وكذلك الشجر والنخل يزكو وتتضاعف ثمراتها حتى تكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه في مآربهم ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه.

تأمل في هذه الحبوب فإنها تخرج في أوعية تشبه الخرائط لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم.

أما البزر وما أشبهه من الحبوب فإنه يخرج من قشور صلبة على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير.

تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتجذب الماء من الأرض، فتتغذي بها أصولها وما علا منها من الأغصان والأوراق والثمار فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها.

هكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة في الأرض ممتدة إلى كل جانب وتمسكه وتقيمه ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية.

تأمل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها، ومنها دقائق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً عجيباً.

انظر تلك العروق كيف تتخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل إليه المادة، وأما ما غلظ من العروق فإنها تمسك الورق بصلابتها وقوتها لئلا ينتهك ويتمزق.

انظر إلى العجم والنوى والعلة فيه، فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقامه إذا عدم ما يغرس أو عاقه سبب.

ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها. وفي بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح. تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب.

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابة وخلقت في ظاهره قشرة حتى أنه بسبب ذلك إن سقط في تراب أو غيره لا يفسد سريعاً، وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظاً، فصار قشره الخارج حافظاً لما في باطنه، وعندما يوضع في الأرض ويسقى يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء، وكلما ازداد غصناً عرقاً تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه إلى الغصن، ويصعد الماء في جذورها إلى أعالي الشجرة فيقسمه الله سبحنه بالقسط وميزان الحق، فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها.

انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقاً لخروج الثمار، لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء فكانت الأوراق ساترة لها، وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المن والعفن غير ذلك من الفساد.

ثم انظر كيف رتب البارىء سبحانه الأشجار والثمار والأزهار، وجعلها مختلفة الألوان والأشكال و الطعوم والروائح.

انظر ما أودع البارىء سبحانه فيها من السر عند النظر إليها، فإنها تجلي عن القلوب درنها عند مشاهدتها وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها، وأودع الله سبحانه فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير. فمنها ما تقوى به القلوب، ومنها أغذية تحفظ الحياة، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها، وخلق فيها بزوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها. انظر وتأمل ما في قوله عز وجل: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون20].

انظر خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير، فإنك ترى فيها شحماً مركوماً في نواصيها غليظ الأسفل رقيق الأعلى كأمثال التلال، تعجز الأيدي عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم

المذكور، وتراه مقسوماً أقساماً، وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية، وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله.

ومن حكمة هذه الصنعة أن حبها لو كان حشوها منه صرفاً بغير حواجز لم يمد بعضه بعضاً في الغذاء فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء، ألا ترى أصول الحب كيف هي مركوزة في ذلك الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل إلى الحب غذاءها، وإلى حبة حبة غذاءها.

ثم انظر ما يصير من الحلاوة في الحب من أصول مرة شديدة المرارة قابضة، ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه على الاضطراب وتحفظه ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات، فإن هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات وهو مابين غذاء ودواء وتدعو الحاجة إليه في غير زمانه الذي يجنى فيه من شجره فحفظ على هذه الصفة لذلك.

انظر إلى عود الرمانة الذي هي معلقة به كيف خلق مثبتاً متقناً حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية المحتاج إليها.

انظر إلى النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين وما أشب ذلك وما فيه من التدبير، فإنه لما كان عود هذه البنات رقيقاً رياناً ذا احتياج إلى الماء لا ينبت إلا به جعل ما ينبت به منبسطاً على وجه الأرض، فلو كان منتصباً قائماً كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمرة مع طراوة عودها ولينها، فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غاياتها.

وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق إلا في الزمن الصالح لها ولمن تناولها فهي له معونة عند الحاجة إليها.

انظر إلى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح خلق فيها الذكر الذي تحتاج إليه لذلك.

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة، وكل ذلك من الماء فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير.

باب ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلام الغيوب:

قال الله العظيم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [الإسراء44].

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشورى5].

وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد13].

إن جميع ما تقدم ذكره من بدائع الخلق وعجائب الصنع وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات وبراهين واضحة، ودلائل دالات على جلال بارئها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته. فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك رأين فيها من العجائب والآيات.

ثم إنك إذا نظرت إلى مستقرك وهي الأرض، وأجلت فكرك فيها، وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها، وما أحيط بها وما جرى فيها، وانبث فيها، وما بث فيها إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب.

ثم إذا نظرت إلى سعتها وبعد أكنافها، وعلمت عجز الخلائق عن الإحاطة بجميع جهاتها وأطرافها.

ثم إذا نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الخلق العظيم إلى السماء، وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة، ثم إنك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوتها السماوات وهي مركوزة فيها ففكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها.

ثم انظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء الجامعة لذلك في حدقة عينك مع صغرها، وبهذا تعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتقائه.

ثم انظر إلى عظم حركتها وأنت لا تحس بها ولا تدركها لبعدها.

ثم فكر في عظم قدر هذه الأشياء، واسمع قسم الرب سبحانه بها في مواضع من الكتاب العزيز: فقال عز وجل: ﴿وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج1].

﴿وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ [الطارق:1-3].

وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة 75/ 76] .

ثم ترق بنظرك إلى ما حواه العالم العلوي من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم. وأعظم من هذا كله قوله عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [البقرة255]

فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم.

فارفع نظرك إلى البارئ العظيم واستدل بهذا الخلق العظيم على قدر هذا الخالق العظيم، وعلى جلاله وقدرته وعلمه، ونفوذ مشيئته وإتقان حكمته في بريته.

وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تقله، ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته، فمن نظر في ملكوت السماوات والأرض ونظر في ذلك بعقله ولبه استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره.

وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر في عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة ويقيناً وإذعاناً لبارئه وتعظيماً وأعظم شيء موصل إلى هذه الفوائد المشار إليها تلاوة الكتاب العزيز، وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه.

علمك بمعرفته ومنَّ عليك بنور هدايته واستعملنا وإياك بطاعته وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنه وكرمه وجوده إنه ولي ذلك.

والحمد لله رب العالمين

دمشق الأربعاء 24 صفر 1425 هـ

14 نيسان 2004 م.